جمعية سفراء التراث
HERITAGE AMBASSADORS ASSOCIATION

واحة البدع: تاريخ عريق وآفاق التوثيق الرقمي

د. منال بنت سيف العبيوي
دكتوراه في التاريخ الحديث، وباحثة في التراث الرقمي.

تُعدّ محافظة البدع إحدى الواحات التاريخية المهمّة في منطقة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية، وقد امتد تاريخها إلى عصور قديمة ارتبطت بحضارات عربية مبكرة وطرق التجارة والحج. شهدت البدع في عصر مملكة الأنباط ازدهاراً واضحاً؛ إذ كانت نقطة التقاء بين الطرق التجارية التي تربط البتراء، عاصمة الأنباط، بميناء عينونا على البحر الأحمر جنوب البدع، وهو من أشهر موانئ مملكة الأنباط. كما ارتبطت هذه المدينة القديمة بحضارة مدين الشهيرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، ما أضفى على الموقع بعداً دينياً وتاريخياً مميزاً.

وتنبع أهمية البدع من موقعها الجغرافي الذي يقع على الطريق التجاري بين مدائن صالح والبتراء، ويُرجَّح أنها كانت إحدى المحطات الرئيسة لقوافل التجارة القديمة. وفي العصر الإسلامي اكتسبت البدع دورًا جديدًا بوصفها محطة من محطات درب الحج المصري، الأمر الذي يعكس استمرارية وظيفتها الدينية والاقتصادية عبر العصور.

تحتضن البدع رصيداً غنياً من المواقع الأثرية والمعالم العمرانية القديمة؛ ففيها آثار مرتبطة بحضارتي مدين وددان، إلى جانب مجموعة من القبور المنحوتة في الصخور التي تعود إلى العصر النبطي، وتحمل في داخلها عدداً من النقوش اللحيانية والنبطية التي توثّق جوانب من النشاط التجاري والزراعي القائم قبل الميلاد بعدة قرون. من أبرز هذه المواقع ما يُعرف بمغاير شعيب، وهي واجهات صخرية منحوتة تضم مقابر فردية وجماعية تتجاوز ثلاثمائة وستين مقبرة، وتتنوع واجهاتها بين المزخرفة والبسيطة، مع تشابه واضح في الزخارف مع ما هو موجود في البتراء ومدائن صالح. وإلى جوار هذه المدافن يبرز بئر السعيدني، وهو بئر كبير اشتهر قديماً وتوقف استخدامه في القرن العاشر الهجري.

حظيت آثار البدع باهتمام مبكر من الرحالة والمستشرقين والباحثين العرب، لما تمثّله من نموذج فريد لواحة عربية تجمع بين التراث العمراني والصحراوي والأنشطة التجارية والدينية عبر فترات زمنية متعاقبة. ومع تطور العمل الأثري في المملكة العربية السعودية شهدت المنطقة جهوداً منظّمة للكشف عن هذه الكنوز، من خلال فرق علمية متخصّصة سعودية ودولية، من أبرزها الفريق السعودي الفرنسي الذي عمل في موقع المالحة قرب الواحة. توصّل هذا الفريق إلى نتائج مخبرية مهمّة؛ إذ أثبتت العينات العضوية التي جُمعت من الموقع أنّ الاستيطان البشري في المنطقة يعود إلى نحو سبعة آلاف سنة، إلى جانب مجموعة من القطع الفخارية التي تعود إلى فترات الممالك العربية الشمالية، ومنها الفترة النبطية، إضافة إلى قلعة مبنية من كتل حجرية متوسطة تطل على واحة البدع ويُرجّح أنها تعود إلى الفترة النبطية.

وفي عام 2019م اكتُشف في البدع نقش آرامي يعود إلى القرن الرابع الميلادي، منقوش على واجهة حجر من الجبس المصقول ويتكون من سبعة أسطر، وقد أشارت الدراسات الأولية لهذا النقش إلى بعض الجوانب الاجتماعية في حياة سكان الواحة في تلك الفترة. تكشف هذه المعطيات مجتمعةً عن عمق التسلسل التاريخي في البدع، وارتباطها بحلقات متعددة من التاريخ العربي والإسلامي.

تعكس المبادرات الوطنية في مجال الآثار والتراث حرص المملكة العربية السعودية على حماية هذه المواقع وتوثيقها؛ فقد عملت الهيئة العامة للسياحة والآثار (وزارة السياحة حالياً) وجامعة تبوك ضمن إطار مذكّرة تعاون وُقّعت عام 1434هـ/2013م لتكثيف الأعمال الميدانية في المنطقة، بما يعزّز عمليات التنقيب العلمي والدراسات المتخصّصة. ومع أنّ ما أُنجز حتى اليوم يُعدّ خطوة مهمّة في مسار الكشف عن تراث البدع، فإن المنطقة ما زالت بحاجة إلى مزيد من المسوحات والتنقيبات الأثرية والدراسات المتخصصة في مجالات العمارة التقليدية والنقوش والبيئة الثقافية للواحة.

ويعتمد توثيق المواقع الأثرية اليوم على مجموعة من التقنيات الرقمية التي أسهمت في رفع دقة التسجيل والحفظ، ومن أبرزها الطائرات المسيّرة (الدرون)، وتقنية التصوير الضوئي ثلاثي الأبعاد (Photogrammetry)، وأجهزة المسح بالليزر ثلاثي الأبعاد (Laser Scanning)، وأنظمة تحديد المواقع عالية الدقة (GNSS/RTK)، إضافة إلى نظم المعلومات الجغرافية (GIS). وتتيح هذه الأدوات إنتاج نماذج رقمية دقيقة للمواقع الأثرية، وتوثيق حالتها الراهنة، ومتابعة التغيرات التي تطرأ عليها مع مرور الزمن، بما يدعم أعمال الترميم والحفظ وإعداد قواعد بيانات رقمية تخدم الباحثين وصناع القرار.

وفي ضوء التوجّه المتزايد في المملكة العربية السعودية نحو توثيق التراث الثقافي وأرشفته رقمياً، تمثّل واحة البدع نموذجاً واعداً لتطبيق هذه التقنيات في حفظ المواقع الأثرية والتعريف بها. فمن خلال إنشاء سجل رقمي متكامل لمعالم الواحة، يمكن دعم الدراسات البحثية، وإثراء المحتوى التعليمي، وتعزيز السياحة الثقافية، بما ينسجم مع مبادرات وزارة الثقافة وهيئة التراث الرامية إلى بناء أرشيف ثقافي رقمي وطني وصون التراث للأجيال القادمة.

تؤكد الشواهد الأثرية والتاريخية في البدع أنّ الواحة كانت مركزاً لالتقاء الطرق التجارية، ومسرحاً لأنشطة حضارية وتجارية وزراعية في فترات زمنية متعدّدة. كما تبرز من خلال التواصل الحضاري بينها وبين المواقع المجاورة ملامح كيان سياسي واجتماعي قائم بذاته في بعض العصور، انعكس في تراكم المباني والقلاع والآبار والنقوش التي لا تزال شاهداً على هذا التراث العريق. إن التعريف بهذه الواحة، ورصد عناصرها المادية واللامادية، يُعدّ خطوة مهمّة في مسار حفظ التراث الوطني ودعم الجهود البحثية والمجتمعية الرامية إلى إبراز قيمة مواقع منطقة تبوك في الذاكرة الثقافية للمملكة.

المصادر:

- فليبّي، هاري سانت جون، أرض مدين، مكتبة العبيكان، الرياض، 1423هـ.
- البديوي، وليد، محاضرة في المتحف الوطني حول آثار محافظة البدع، المتحف الوطني بالرياض.
- العطوي، تبوك قديماً وحديثاً.
- وزارة السياحة، نتائج أعمال البعثة السعودية الفرنسية في موقع البدع، 1441هـ /2019م.
- مذكرة التعاون بين الهيئة العامة للسياحة والآثار وجامعة تبوك، 1434هـ/2013م.